الشذوذ العقلى عند الأطفال فى السن المدرسية

بقلم الدكتور السيد محمد بدوى

دكتور فى التربية والاجتماع من جامعة باريس

كثيراً ما نصادف أطفالا لا يتمتعون بالنمو العادى من الوجهة البدنية أو العقلية فنلقى عليهم نظرة عابرة مكتفين بإبداء بعض الملاحظات الطريفة التى لا نبغى من ورائها الإصلاح بل التفكهة دون أن نتوقع أن هؤلاء الأطفال الشواذ قد يجدون صعوبات جمة فى حياتهم الدراسية ويستعصى عليهم السير على قدم المساواة مع أقرانهم . والواقع أن الأخذ بيد هؤلاء الأطفال وتربيتهم تربية تتلاءم مع حالتهم أمر يشغل بال الكثيرين من المشتغلين بالتربية وعلم النفس الحديث . ولاشك أن تشخيص المرض هو الخطوة الأولى التى يجب أن نهتم بها لأن عليها تترتب تهيئة العلاج اللازم وقد يكون أى خطأ فى هذا التشخيص أو الحكم المتسرع على حالة الطفل مما يجعل الأخذ بيده عسيراً . وتميز الأطفال غير العاديين من غيرهم ليس من السهولة كما نتصور خصوصاً إذا كان انحرافهم أو شذوذهم طفيفاً لم يصل إلى حد البلاهة imbécilité أو العته idiotie ولذلك فهم غالباً ما يتركون وسط الآخرين ولا يتنبه المدرس أو المربى إلى حالتهم إلا حين يشعر أنهم لا يستطيعون متابعة الدرس كبقية التلاميذ .

ونحب قبل أن نبدأ بحثنا هذا أن نلفت النظر إلى مسألتين هامتين : الأولى أن كثيراً من الناس يعتقدون عند ملاحظة ظواهر غير طبيعية فى الطفل أن هذه الظواهر لا أهمية لها وأنها سرعان ما تختفى ويعللون أنفسهم بقول بعضهم أن « الطبيعة تقوّم نفسها بنفسها » ولكن إذا كنا نعبر بذلك عن رغبتنا فليس معنى ذلك أنه الواقع فى جميع الحالات . نعم قد نشاهد أحياناً أطفالا يعوضون ما فاتهم ويكملون النقص الذى كان يعتريهم فى طفولتهم الأولى ولكن هذا الأمل لا يتحقق دائماً وقد تختفى علامات النقص التى كانت تقلق بالنا ولكن اختفاءها لا يكون إلا فى الظاهر والحقيقة أنها حين تختفى تظل كامنة ثم تتحول إلى حالات أخرى تظهر فجأة على شكل آخر لم نكن نتوقعه . والمسألة الأخرى التى نحب أن نشير إليها هى مسألة الوراثة وهذه مسألة شائكة تناولها كثير من علماء النفس بالبحث ولم يهتدوا فيها بعد إلى رأى حاسم . فكثيراً ما نميل إلى تفسير الشذوذ الذى نلاحظه فى الطفل بأنه وراثى وسواء أكان هذا التفسير هو الحقيقة

أم لا فإنه على كل حال يطوى بين ثناياه فكرة الاستسلام للقدر وهى فكرة قد تثبط كثيراً من العزائم وتجعل البعض يقول بأن لا داعى للتفكير أو محاولة العلاج مادمنا أمام ظاهرة وراثية . ولكن التجارب العملية أثبتت عكس ذلك فليست العيوب الوراثية مما يجب أن نخشاه كثيراً وحتى فى حالة وجودها لا يجب أن نفقد الأمل فى علاجها . فمهما يترتب على النقص الوراثى من نتائج حتمية فإن هذه النتائج يمكن مقاومتها بمؤثرات أخرى تمحو أثرها شيئاً فشيئاً .

وقد اتخذ الاهتمام بتربية الأطفال الشواذ شكلا عملياً منظماً فى البلاد التى استطاعت أن تحظى بمقدار وافر من الاستقرار فى النظم التعليمية . فاستطاع أولو الأمر أن يدركوا الفائدة العظمى التى تعود على الأطفال وعلى المدرسين أيضاً حين يتحرر الفصل العادى من الحمل الثقيل الذى يعوق تقدمه نظراً لوجود بعض الشواذ فيه . كما تبين لهم أن هؤلاء الشواذ أنفسهم إذا وضعوا فى فصول خاصة تقوم على تربيتهم بطرق خاصة تتلاءم مع حالتهم العقلية فإنهم يستطيعون أن يعوضوا ما فاتهم من التأخر ويخطوا بخطوات واسعة نحو التقدم الفكرى والخلقى . ولقد أصبحت هذه الفكرة من الانتشار فى أوربا وأمريكا بحيث لم تعد تحتمل الجدل ويعترف الكل بضرورة الأخذ بها طالما تسير المدارس على النظام الموروث فإذا ما تحقق يوماً الأمل الذى يعقده رجال التربية على التعليم الفردى وعممت المدارس التى تراعى تطبيق النظم الخاصة على الحالات المختلفة وهى ما يطلق عليها كلاپاريد (Claparède) إسم (L'école sur mesure) أصبحنا طبعاً فى غير حاجة إلى الفصول الخاصة بالشواذ .

ولكن قد يعترض البعض على فائدة هذه النظم الخاصة من الناحية الاجتماعية ويرون أن من العبث أن نضحى بكثير من الجهد والمال جزافاً فى سبيل أطفال قد لا يبلغون مهما فعلنا معهم إلا مقداراً طفيفاً من التقدم ولا يكون لهم فى المجتمع إلا قيمة محدودة . ونحن لا ننكر أن هذا الاعتراض لا يخلو من الحقيقة إلى حد ما ولكنه لا يلبث أن يسقط إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة أخرى وحتى دون أن نبتعد عن وجهة النظر الاجتماعية والإنسانية نرانا مضطرين إلى القول بأن من واجب المجتمع أن يأخذ بيد هؤلاء الأطفال المساكين لأن معظمهم — إن لم نقل كلهم — ضحية وفريسة لاختلال نظامنا الاجتماعى الحالى . فقد أثبتت الإحصائيات أن نسبة الشذوذ العقلى والخلقى ترتفع ارتفاعاً كبيراً فى المراكز الصناعية حيث يكثر الفقر وتقل العناية برفاهية العمال من الناحية المادية والعقلية . أليس من الواجب إذن أن نعوض لهؤلاء الأطفال ما حرمتهم منه ظروف

حياة آبائهم القاسية وأن نوفر لهم بعض السعادة التى قد لا يصادفونها أبداً إذا أرغموا على ارتياد الفصول العادية ؟ — على أننا إذا نظرنا إلى المسألة من الناحية التربوية (البيداجوجية) نستطيع أن نجد فيها أعظم مبرر للتضحيات التى نتحملها فى سبيل الأطفال الشواذ . فإن النتائج التى نحصل عليها من استنباط الوسائل الجديدة ، التى تناسب هذه العقول الضعيفة تكون ذات أثر فعال فى توجيه النظام المدرسى بوجه عام . إذ تساعدنا على التخلص من الوسائل التقليدية (La routine) التى مازالت للأسف متغلغلة فى صميم حياتنا المدرسية وتجعلنا نلمس أسباب الضعف والفساد التى تجعل من التعليم بنظامه الحالى عقبة كأداء فى سبيل من هم فى دون المستوى العادى .

والاهتمام بتربية الأطفال الشواذ لا يرجع إلى عهد بعيد[١] . وقد وجه الاهتمام فى بادىء الأمر إلى ذوى العاهات الحسية كالعميان والصم البكم (Sourds-Muets) ثم إلى المعتوهين أملا فى النهوض بهم إلى درجة بسيطة من الحياة العقلية تمكنهم من القيام على شئونهم الخاصة بأنفسهم . ولم يبدأ التفكير فى الحالات الأخرى من الشذوذ كالتأخر العقلى (Arriération) والفساد الخلقى (perversion) إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن أصدر إيتار (Itard) سنة ١٨١٠ بحثه المشهور عن محاولاته لتعليم طفل عاش فى الأحراش والغابات بعيداً عن المدنية حتى بلغ الحادية عشرة من عمره[٢] . فبعد ٣٠ سنة تقريباً من صدور هذا الكتاب أنشئت فى باريس ثلاث مدارس للأطفال الشواذ هى مدرسة (Bicêtre) والمدرسة الملحقة بمستشفى (La Salpêtriere) ومدرسة (Séguin) (أحد الأطباء المهتمين بحالات الطفل الباتولوجية فى ذلك الوقت) . وفى سنة ١٨٣٥ أنشأ فوكه انتس كنجما (Fokke Inteskingma) أول معهد للأطفال ذوى الاضطراب العقلى فى أمرسفورت (Amersfoort) بهولندا . وفى سويسرا عنى الدكتور جوجنبول بإنشاء أول معهد للشواذ بالقرب من انترلاكن وقام فوق ذلك بالدعاية اللازمة فى جميع أنحاء أوربا لمساعدة هؤلاء التعساء الذين لا يستطيعون الاستفادة من الدراسة فى الفصول العادية وقد انتشرت بعد ذلك هذه المعاهد انتشاراً عظيما فى أوربا وعلى الخصوص فى ألمانيا وانجلترا . أما فى مصر فلم نخط حتى الآن إلا خطوات

(١) لدراسة الموضوع من الناحية التاريخية أنظر Dr. Naville : Du rôle des classes spéciales dans l'éducatiou des enfants anormaux . Genève 1910 .

(٢) Itard : De l'éducation d'un homme sauvage ou des premiers développements physiques et moraux du jeune sauvage de l'Aveyron. Paris, 1810 réédité par Bourneville, Paris 1834.

معدودة فى هـذا المضمار ولا يوجد — على ما أعلم — لعلاج الشذوذ العقلى فى المدرسة إلا القسم الملحق بمدرسة الليسيه فرانسيه وقد زرت هذا القسم أخيراً وسوف أتحدث عن مجهوداته فى آخر هذا المقال .

تعريف الشذوذ العقلى

والآن من هم الأطفال الذين يدخلون فى عداد الشذوذ ؟ أو بمعنى آخر كيف يميز بين الطفل العادى وغير العادى ؟ فإذا فرغنا من هذا التمييز وجب علينا بعد ذلك تقسيم الأطفال الشواذ حسب درجة شذوذهم حتى نستطيع أن نقدم لكل منهم العلاج الذى يتفق مع حالته .

يعرف الدكتور لي (Ley) الشذوذ بوجه عام بأنه « هبوط عقلى وعدم استقرار نفسانى وتأخر فى التفكير يمنع من الاستجابة الطبيعية لمؤثرات الوسط الذى يعيش فيه الإنسان »[١] وهذا التعريف يخرج من نطاقه البلهاء والمعتوهين الذين يعيشون خارج نطاق الحياة الاجتماعية . أما هـ . جودارد (Goddard) فإنه يعرف الشاذ بأنه « الشخص الذى أصيب بنقص عقلى أو جسمانى منذ ولادته أو فى سن مبكرة جعل من الصعب عليه أن يسير فى الحياة على قدم المساواة مع غيره أو يستطيع إدارة شئونه الخاصة بنفسه » . وعدم القدرة هذه على ملاءمة الوسط والتكيف به قد تتخذ شكلا طفيفاً لا يتعدى بعض التعوق فى مزاولة العمل كما أنها قد تصل إلى حد البله (Idiotie) الذى يستحيل معه القيام بأى عمل .

ونحن حين نعرض لتقسيم الشذوذ بحسب درجاته المختلفة نصادف خلافاً على هذا التقسيم بين علماء النفس وذلك أولا لأن الاختيار البيولوجى والعقلى الذى يجب أن نمارسه بشأن هؤلاء الأطفال الشواذ لم ينظم بعد التنظيم الكافى بالرغم من الرغبات الكثيرة التى أثيرت فى هذا الصدد . وثانياً لأننا لم نكن نملك إلى عهد قريب إلا معلومات طفيفة وغير كاملة عن حالة الطفل العقلية فى المدرسة . وفوق ذلك فإن هذه الخلافات قد تقوم فى غالب الأحيان على اعتبارات شكلية . ففى انجلترا مثلا منذ عهد ج . وارنر (Warner) يميلون إلى التمييز بين ضعاف العقول (Feeble Minded) والمصابين بالبله أو العته (Imbecility & Idiocy) ولكن شاتلورث (Shuttleworth) يلاحظ أن التعبير الأول يدعو للبس فقد اعتاد الأمريكان أن يدخلوا تحت لفظة ضعاف العقول كل الأطفال غير العاديين ابتداء من أول درجات المرض حتى أقصى درجات البلاهة . ولذلك فهو يقترح أن يطلق على

(١) Alice Descoeudres : L'éducation des enfants arriérés . Delachaux et Niestlé. Neuchâtel 1942 .

الأطفال غير العاديين (Abnormal) « اسم الأطفال الناقصين عقليا » (Mentally déficient children) أما فى بلجيكا فإنهم يدخلون عادة فى زمرة الشواذ الأطفال المصابين باضطراب فى النطق والصم البكم والعميان والمتأخرين عقلياً ولم يشذ دكرولى (Decroly) عن هذه القاعدة حين اتبع فى تقسيمه مبدأ عدم التفرقة بين الشذوذ الجسمى وبين الشذوذ العقلى . وعلى هذا الأساس فإنه يميز .

(١) الشواذ بسبب نقص طبيعى (physique) (الأكتع والأعرج الخ . . .)

(٢) الشواذ بسبب نقص حسى (sensoriel) (العميان والصم الخ ...)

(٣) الشواذ بسبب نقص عقلى (intellectuel) (البله والمتأخرون عقلياً الخ ..)

(٤) الشواذ بسبب نقص فى القوى العـــاطفية (Facultés affectives) كالمجانين الخلقيين Les fous Moraux

(٥) الشواذ بسبب تشنج عصبى (Les convulisivants) (مثل المصابين بالصرع) (Les épileptiques)

(٦) الشواذ بتأثير الوسط وهؤلاء هم الأطفال الذين لم يكن لديهم فى بادىء الأمر أى نقص ثم جنحوا إلى الشذوذ بتأثير الوسط الذى يعيشون فيه .

ولـكن لما كان موضوع بحثنا هو الشذوذ العقلى الذى يعترى الأطفال فى سن الدراسة فقد وجب علينا أن نبحث عن تقسيم لحالات هذا الشذوذ دون غيره . ويعرف الشذوذ العقلى عادة « بأنه نقص فى بعض المراكز العصبية مما يؤدى إلى اضطراب فى النمو العقلى والخلقى ويجعل الشخص الذى يصاب به لا يستطيع أن يتكيف بالوسط الذى يعيش فيه . وهذا الاضطراب ينتج إما عن نقص فى الجهاز العصبي وراثى أو مكتسب وإما عن توقف أو تأخر فى نمو هذا الجهاز وإما أخيراً عن تسمم فى بعض الخلايا العصبية على أثر أمراض تعترى أجزاء أخرى من الجسم »[1] . فمن المسلم به الآن أن مركز العقل يحتل جزءاً من المخ فالطفل الشاذ عقلياً هو الذي يكون مصاباً بمرض أو خلل فى هذا العضو . وقد يكون هذا الطفل نفسه مصاباً بضعف فى الجهاز العضلى (Musculaire) أو فى الجهاز التنفسى (Respiratoire) مما يؤدي إلى مضاعفة مرضه العقلى ولـكن هذه الأمراض وحدها لا تكفى لتـكون سبباً فيما يعانيه من ضعف عقلى . وعلى ذلك فما يعتري الطفل من نقص فى كيانه (organisme) لا يمكن أن يؤدى إلى الشذوذ العقلى إلا إذا كان لهذا النقص رد فعل على جهازه العصبي .

(١) Dr. Philippe et Dr. Paul-Boncour : Les anomalies mentales chez les écoliers. Alcan, Paris 1922 P. 19.

وعلى هذا الأساس يمكننا تقسيم الأطفال الشواذ عقلياً إلى:(١)

(١) المعتوهين Les idiots (٢) البلهاء Les imbéciles

(٣) ضعاف العقول Les débiles mentaux

(٤) المنحرفين أو الفاسدين Les pervers

(٥) المتأخرين عقلياً Les arriérés mentaux

ولنحاول الآن وصف كل حالة من هذه الحالات :

حينما تعرض Binet لوصف العته والبله لم يراع إلا الناحية البيداجوجية فاقتصر على وصف المعتوه بأنه « الطفل الذى لا يستطيع أن يعبر عن أفكاره بواسطة الكلام كما أنه لا يستطيع أن يفهم أى فكرة تصل إليه عن هذا الطريق . وهذا العجز لا يرجع لنقص فى التكوين العضوى ، ولكن لخلل فى المراكز العقلية (٢) » ، ولكن إذا نظرنا للعته من الناحية الطبية أو الكلينيكية وجدناه يتميز بأنه حالة اضطراب فسيولوجى وعقلى وخلقى تنشأ أثناء تكوين الجنين أو فى وقت الولادة . وقد تحدث أيضاً على أثر اختلال باثولوجى أثناء الطفولة الأولى (أى من الولادة إلى سن ٧ سنوات). ويتميز المعتوه بعدم المقدرة على المشى ومسك الأشياء والكلام والانتباه وعدم المقدرة على القيام بحاجاته الضرورية البسيطة . وهولا يشعر بحاجة للأكل أو يكون ذا نهم لايحس معه الشبع كما يلاحظ عنده سيلان اللعاب الدائم وأغشية الأنف وكثرة الصياح والحركات المضطربة (كالتأرجح والغمز grimaces واضطراب اليدين) وبالرغم من أن أعضاء الحس لديه كاملة من الوجهة التشريحية ، فإن حواس السمع والبصر والشم والذوق واللمس تكاد تكون معدومة من الوجهة الوظيفية . والشعور العام شديد الانحراف وهذا يفسر لنا عدم اهتمام المعتوه بالألم والبرد والحرارة . وهو لا يستطيع أن يتعرف على الاهل أو الأشخاص الذين يقومون على خدمته .

وهناك درجة أخف وطأة من هذا العته المطبق absolue يمكن معها الرجاء فى بعض العلاج . والمريض فى هذه الدرجة يستطيع أن يمشى ولكن بخطوات مختلة ويستطيع أن يمسك الأشياء ولكن بطريقة غير منتظمة لأن الإبهام لا يؤدى وظيفته تماماً ، وقد

---

(١) هذا التصنيف يتمشى مع تصنيف الدكتور بورنفيل .

(٢) Descoeudres : op. cité. P. 16.

تقتصر القدرة على الكلام على ترديد بعض المقاطع . كما أن المريض فى هذه الحاله يستطيع التعرف على بعض الأهل والتعبير عن شعور التفضيل لبعض الأشخاص . وكثيراً ما يكون لهؤلاء المعتوهين مواهب موسيقية فيحفظون بسرعة بعض الألحان التى يسمعونها ويرددونها باستمرار . وفى هذا مايدل على وجودبعض الذاكرة عندهم والانتباه عندهم متقطع وهم ينظرون بدون أن يروا ويسمعون ما يحرصون على سماعه فقط أما ما لا يهمهم من النداءات والأصوات المختلفة فهم بإزائها صم تماماً . وهؤلاء الأطفال لا شعور لهم بالخطر ويحبون التخريب ويقرضون أظافرهم ويمزقون ملابسهم ولا يحجمون عن عض أنفسهم أو غيرهم ويمارسون العادة السرية .

أما الأبله فقد عرفه بينيه Binet بأنه الطفل الذى لا يستطيع أن يعبر عن رأيه بالكتابة ولا أن يفهم ما يقرأ على أن يكون ذلك راجع لنقص فى المراكز العقلية لا لأسباب طبيعية (كضعف النظر وشلل الذراع مثلا) . وقد يستهوى هذا التعريف العقول لتناظره مع تعريف العته . ولكن فى الحقيقة كما يلاحظ هوير وجلبرت روبان[1] ليس هناك مجال لهذا التناظر من الناحية العقلية بين لغة الكلام والكتابة فلغة الكلام وحدها هى اللغة الحقيقية التى يمكن قياس الذكاء بالنسبة لها أما الكتابة فما هى إلا تمثيل للغة الكلام ، وليست ضرورية للفكر الإنسانى . ومن السخف أن نقول إن الأمية في ذاتها علامة على انحطاط الذكاء . على أنه قد أمكن بواسطة التكرار تعويد البلهاء القراءة دون أن يؤدى ذلك إلى أى تحسن فى قواهم العقلية . فهم حين يقرأون لا يستطيعون أن يدركوا معنى ما يقرأون . وعلى ذلك يجب أن نلجأ في تعريف البله إلى وسائل أخرى وإلى تجارب أخرى غير التجارب البيداجوجية المحضة . وقد أثبتت هذا التجارب أن الأبله يعانى تأخراً عقلياً عميقاً وأنه لا يصل فى النهاية مهما بلغت سنه إلي تخطى سن الست أو السبع سنوات من الناحية العقلية .

أما ضعيف العقل débile mental فهو اسم يطلق على من تنطبق عليه فى لغتنا العادية صفة الحماقة Sottise وهذا يعنى نوع من الخطأ والتسرع فى الحكم على الأشياء حتى ولو كان الشخص ذا اطلاع واسع . ونتيجة لهذه الحماقة يتصف ضعيف العقل بالغرور وتصديق كل ما يقال دون تمحيص ، ولكن هذا الشذوذ لا يحول فى بعض الأحيان دون التمتع بذاكرة جيدة وبمقدرة على التحصيل وقد ينجح بعض

(١) Heuyer et Gilbert Robin : Traité dc Médecine Infantile t. IV P. 868.

ضعاف العقول نجاحاً باهراً في المجتمع ويؤكد البعض أنه ما من جمعية مختارة علمية كانت أو أدبية إلا ويكون بين أعضائها نفر من ضعاف العقول(١) .

أما المنحرف أو الفاسد Le pervers فهو تعبير يجب أن يعالج فى كثير من الحذر لأنه يدل على شيئين مختلفين تعبر عنهما لفظتا Pervesité و Pervesion . فاللفظ الأول له صبغة أخلاقية محضة إذ يعبر عن اللذة في عمل الشر كما يتضمن الغبطة من الإضرار بالغير بدافع من الكراهية . أما اللفظ الثانى pervesion فيدل على انحراف فى التكوين الغريزى إلى ناحية من الشذوذ ويصحب هذا الانحراف طبعاً شعور باللذة ، ومن أمثلة هذا الانحراف الميل إلي الجنس المماثل والميل إلى القسوة في إثارة الغريزة الجنسية masochisme الخ ... وعلى ذلك يجب لتوضيح الحالة تماماً أن نقول إن هذا الطفل عنده pervesion أو Perversité ولا نقول إنه perverti لأن هذا التعبير يؤدى للخطأ . ومما زاد فى تعقيد المسألة التفرقة التى يجب أن نقوم بها بين الطفل الفاسد pervers نتيجة لتطور غريزى وبين الطفل الذى اكتسب الفساد أو الانحراف perverti أى الذى اندفع إلى الشذوذ عن طريق التقليد المتعمد .

بقيت أمامنا حالة التأخر العقلى L'arriération mentale وهذه تتفاوت درجتها فقد تبدأ في أقصى حالاتها فوق مستوى البله وقد لا تعني إلا تأخر سنة أو سنتين إلى الذكاء العادى .

طرق العلاج

والآن بعد أن وضحنا بعض حالات الشذوذ عند الأطفال نريد أن نلقى نظرة عاجلة عن الطرق التي يجب أن تتبع في تعليمهم . فالأطفال الشواذ — كما أسلفنا — فيما عدا المعتوهين ذوى البله الشديد Les imbéciles profonds ، تمكن معالجتهم والرجوع بهم إلى حالة تقرب من الطبيعية . ولذا يجب أن يشترك فى السهر على العناية بهم الطبيب والمربى . الأول يفحص الطفل طبياً ويشخص الأمراض التي قد تصاحب شذوذه العقلى والثانى مستعيناً بالتجارب النفسية والاختبارات les tests يحدد على وجه الدقة مستواه العقلى ويستنبط الوسائل التعليمية التى تناسب ذلك المستوى . وقد أسعدنى الحظ أخيراً بزيارة القسم الخاص بالأطفال الشواذ الملحق بمدرسة الليسيه فرانسيه والذي تقوم بأعبائه مدام نجار Najar وهى سيدة ذات ثقافة بيداجوجية عالية . فطافت بى أنحاء القسم ،

(١) Pichon : Le développement psychique de l'enfant et de l'adolescent. Masson & Cie éditeurs, Paris 1936.

وأطلعتنى على سير العمل فى الفصول المختلفة ، ويجمع كل منها عدداً من الأطفال ذوى المستوى العقلى الواحد . وقد شرحت لى كيف يختبر الطفل عند دخوله لتقدير مستواه العام ويتبع ذلك اختبار تحليلى analytique لمعرفة طبيعة النقص فى عقليته وهذا التقدير يكون عادة بواسطة اختبار Rossolimo Vermeyllen ، ثم يكشف على الطفل طبياً بمعرفة أحد الأطباء الملحقين بالقسم ، ويوضع بعد ذلك فى القسم الذى يلائم حالته ويراقب أسبوعاً لملاحظة تكيفه بالوسط الذى يوجد فيه ، فإذا استعصى اندماجه يسحب للعلاج الفردى الذى تطول مدته حسب الحالات المختلفة . ومن الأطفال الذين شاهدتهم طفل أبله فى الخامسة عشرة من عمره لم يكن يستطيع المشى أو الحركة المنتظمة عند دخوله ولكنه الآن يجرى ويستطيع أن يلتقف الكرة وهم الآن آخذون فى تعليمه الكلام ، أما فى الفصول الأخرى فإن التعليم قائم على الطريقة المباشرة La méthode active فيجتمع الأطفال حول لعبة مفككة يحاولون إعادة تركيبها أو حول أحجية يحلون رموزها ومن حولهم المدرسة تعاونهم على فهم ما أغلق عليهم .

وليست تربية الطفل الشاذ قاصرة على الناحية التعليمية بل إن تقويمه الخلقى ذو أهمية عظيمة فى النهوض به . ولا بد لهذا التقويم من فهم الطفل ودرس نفسيته بتعمق وتحليل الدوافع التى تدفعه لإتيان بعض الأفعال المحرمة ، ولا يغيب عن بالنا أن التكبر والتغالى من الصفات التى تلازم بعض الأطفال الشواذ فلنحذر أن نصدمهم فى آرائهم فإن ذلك يثبت أقدامهم فى غيهم وتعنتهم . ولنعلم أن تصلبنا فى إقناعهم برأى من الآراء يكون سبباً فى تعلقهم بالرأى المناقض وتشبثهم به فلنبتعد عن الجدل معهم ما أمكنا ولنتحاشى كل مناسبة لذلك ، ولشد ما ندهش حين نرى أن ذلك الجدار المشمخر لا يخفى وراءه إلا نفساً محطمة ، وأفكاراً شعثة . فقد كان يستمد قوته الوحيدة من تعنته فى رفض ما يعرض عليه فإذا لم نهيىء له هذه الفرصة أتى إليك راضخاً يطلب المعونة ويسأل المشورة ، ولا يفكر بعد ذلك فى معارضتك بل على العكس يسعد كثيراً بما تبذله له من معونة .

وكثيراً ما يصحب الشذوذ العقلى اضطراب خلقى troubles de caractère فيميل الطفل إلى السرقة والتخريب والهروب ، ويكون ذلك فى الغالب نتيجة لما يعانيه من وسائل الضغط المختلفة من قبل الآباء والمربين . فيضطره هذا الضغط إلى كبت غرائزه refoulement ولكن قوة الضغط لا تلبث أن تؤدي إلى الانفجار فيندفع الطفل تاركا لغرائزه العنان فتنحرف به إلى طريق التخريب . ولذلك فإن أمثل الطرق لعلاج

هذه الحالة تنحصر في رفع وسائل القمع المختلفة وفى ذلك تقول مدام جريت Guéritte معبرة عن رأي سيريل بيرت Cyril Burt [١] « إن أحسن وسيلة لتخفيف النزعة للجريمة هو أن نهيء للطفل فرصة لاستنفاد حدته الغريزية الخطرة بوسائل لا خطر فيها (inoffensives) بدلا من أن تضطره إلى كبتها تحت ضغط التربية العقيمة . فالطفل إذا كان حاد المزاج سريع الغضب لا يستطيع أن يغير طبيعته ولكننا بوسائل تعليمية تساير مزاجه وتهيء له الوسائل لاستخدام نشاطه الفياض نستطيع أن نحدث فى نفسه التوازن المطلوب لكبح جماح نفسه الثائرة » .

ومن الوسائل التى يشير بها بيرت والتى اقتبستها نظم التربية الحديثة أن نعهد بكثير من النقود للطفل الميال للسرقة ، وأن نهيء لمحبي التشرد والهروب الفرصة لإشباع هوايتهم وحبهم للمخاطر عن طريق الكشافة والرحلات مثلا . كل هذه الوسائل تحول النزعة للفساد إلى نزعة اجتماعية . ويشرح لنا كلاپاريد طريقة هذا التحول أو التسامي Sublimation بقوله : « من المحتمل أن إحلال النزعة الطيبة محل النزعة الضارة لا يكون ممكناً إلا إذا عرفنا الوظيفة التى كانت تؤديها تلك النزعة الضارة أو بمعنى آخر الحاجة الملحة التي كانت تشبعها . فى الواقع يجب ألا ننسى أن الدوافع المختلفة التي تدفع الكائن الحى تكون غايتها دائماً إشباع حاجاته . فيجب على المربى إذاً أن يعنى بإبدال النزعة الفاسدة بنزعة طيبة تقوم بنفس الدور الذي كانت تقوم به تلك من تلبيتها لحاجات الكائن الحى من حيث النمو الطبيعى والنفسانى وقد أطلق فرويد على هذا النوع من الإبدال (الذي يحدث عادة تحت تأثير الوسط) (Sublimation) فإلى عهد قريب جداً كانت تربية الطفل المتمرد تنحصر فى كسر شوكته وإخماد حركته وتكميمه ولا داعي للقول بأن هذه الطريقة تحكم على هؤلاء المساكن بالموت أحياء . وقد حان الوقت لكي يتجرد الكبار من غطرستهم ويتعلموا كيف يستخدمون قوة الاندفاع عند الطفل على أن يوجهوها توجيهاً صالحاً حكيما .

رأينا فى هذا المقال كيف تهتم البلاد الغربية بمشاكل الأطفال الشواذ وكيف يكرس رجال التربية فيها الكثير من وقتهم للعناية بهم والنهوض بمستواهم . ونحن ننتظر اليوم الذي تحذو فيه مصر حذو هذه البلاد فيلحق بكل مدرسة — أو على الأقل بأهم مدرسة في كل حي — قسم خاص تكون مهمته فحص التلاميذ فحصاً طبياً وسيكولوجياً وعزل المتأخرين منهم لتعليمهم بوسائل تتفق مع عقليتهم المريضة . وتلك مهمة تنوط بمعهد

(١) The Young Delinquent : University of London Press.

التربية العالى فعليه أن يحاول سد هذا النقص فى نظامنا التعليمي وأن يولى هذه الناحية بعض الاهتمام الذي يوجه للفصول النموذجية التى تعنى إلا بأولاد الذوات ممن يتمتعون بعقلية ممتازة أو فوق المتوسط . أليست العقول المريضة — وهي للأسف كثيرة فى بلدنا التي اشتد فيها فتك الفقر والمرض — خليقة ببعض عنايتنا إذا كنا نحرص على أن يكون فى مصر شباب قوى سليم يستطيع أن ينهض بالتبعات الجسام الملقاة على عاتقه .

Résumé

AL-SAYYED M. BADAWI : Les anomalies mentales à l'âge scolaire.

Après avoir indiqué les divers degrés de l'arriération mentale et de leur degré d'éducabilité, l'auteur attire l'attention sur la nécessité de dépister, dans les écoles égyptiennes, les cas d'arriération mentale, pour leur appliquer un régime d'éducation approprié.